الفصل الرابع

الحب ، أروع نعم الله

www.anwarsadat.org

الحب أروع نعم الله 63

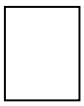

1

في عصرنا اللاهث هذا يجدر بنا أن نقف أمام قيمة كبيرة ورائعة جدا كدنا أن ننساها فى صراعنا اليومى من أجل تحقيق مطالبنا المادية.. هذه القيمة هى الحب.. الذى أخذ فى التضاؤل حتى كاد مفهومه أن ينحصر فقط فى المسألة الحسية على الرغم من أن الحب قيمة تمتد وتتسع لكى تشمل الكون كله بكل روعته وبهائه.. فالمفهوم الحقيقى للحب يبدأ بحب الله.. وهو مفهوم ليس جديدا على الفكر العربى إذ نجده عند فلاسفة الصوفية من أمثال جلال الدين الرومى، وابن عربى، وابن الفارض وغيرهم.. فالحب الإلهى فى نظر أصحاب الخبرة الصوفية هو " محو الحب بصفاته، وإثبات المحبوب بذاته " و هو " خروج عن رؤية المحب إلى رؤية المحبوب " وهو أيضا " الميل إلى الله بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا، ثم علمك بتقصيرك فى حبه " كل هذه التعريفات تدل على المفهوم الصوفى للحب الإلهى الذى يؤكد أن الوجود الحقيقى للإنسان فى هذا الكون

64وصيتى

موجود فقط فى الله عز وجل، فلابد أن يتجرد عن كل ما عدا الله لكى يحيا ويوجد و يتحرك فى الله . ولذلك فالعبادة عند الصوفى هى الاتحاد بالله لأنها علاقة حب متبادلة بين الرب والعبد .

كنت فى شبابى قد تعودت أن أقرأ فى شهر رمضان بالذات قصيدة لشاعر ألمانى صوفى يردد دعاء حارا صادقا لله سبحانه ، وهو فى هذا الدعاء لا ينسى أنه يعيش على الأرض وهو يسبح بروحه فى ملكوت الله الأعلى، ولذلك صدر دعاؤه رائعا

www.anwarsadat.org

جديدا يترجم عبادته لله وحبه المتقد فى نفسه ، وفناءه المتصل فيه . كل هذا تترجمه ألوان من هذه الطبيعة التى رعتها لنا يد الخالق الحبيب فأبدعت وأذهلت..

استمع معى إلى ذلك الصوفى وهو يقول:

هو ربى الذى أعبد
هو ربى الذى أعشق
هو ربى الذى من أجله أريد أن أتألم
وأريد أن أتعذب
وأريد أن انفطر وأتمزق وأموت
انه يتغلغل فى عقلى
تغلغل الحرارة المباركة فى عظام شيخ محطم
ويندمج فى كيانى
كما يندمج العطر فى الزهرة

www.anwarsadat.org

والثمرة فى الشجرة
والنور فى الظلام
فامنحنى يا الهى قوة الفكر
كى أعيش فيك كالأسد
وهبنى يا الهى روح التواضع
كى اقترب منك فى وداعة البنفسج
واسكب على يا الهى ضوء القناعة
كى أنفذ إليك فى حكمة العباقرة
وأغدق على يا الهى فيض الصفاء
كى يغتسل قلبى فى مياهك الزاخرة
وجللنى يا الهى بروائع جمالك
كى اندمج فيك.. واسبح بحمدك.. دنيا وآخره

سنظل نشقى على هذه الأرض... وسنظل نضل الطريق، ولن نستمتع بهذه الحياة إلا إذا ارتفعنا فوق نفوسنا لنفكر فى خلق السماوات والأرض.

ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك .

هذه التسابيح الصوفية لا تصدر إلا عن قلب عامر بالأيمان العميق الراسخ، قلب ذاق المباهج الروحية للحب الإلهى وأحس أن الحياة كلها لا تساوى شيئاً بدونها. قلب أدرك أن الأيمان بالله هو اسمى درجات المعرفة اليقينية ، إيمان قائم على الحب المتبادل وليس على خوف الإنسان من الرهبة الإلهية .

وعندما يغمر الحب الإلهى قلب الإنسان فإن كل المخاوف تتلاشى كما تنقشع الظلمة أمام النور.. يذكرنى هذا بالأيام التى قضيتها رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية ، كنت أكتب مقالة يومية بعنوان " رأى " وذات يوم كتبت أقــول إننـــى لـــن أذكـــر الله إلا باعتباره صديقا لى أحبه ولا أخشاه ، لأن المنطق البسيط يقــول أن وجـــود الحـــب يتنافى تماما مع وجود الخوف ، إذن كيف أحب الله وأنا خائف منه..؟

www.anwarsadat.org

الحب أروع لعم الله 67

ج

بعد نشر هذه المقالة ثارت مناقشة صاخبة تقول أن الخوف من الله جزء مهم من الأيمان ولكن تجربتى القديمة فى الخوف أكدت لـــى أن الله لا يمكن أن يكون عدوا جبارا منتقما إلا مع الكفار والملحدين الـــذين أنكـــروا وجـــوده وصمموا على السير فى طريق الجحيم.

ما أروع أن تتخذ من الله عز وجل صديقا وحبيبا.

إنه الذى يقول للشىء كن فيكون، وبالتالى إذا استشعرنا هذا الحب الإلهى فى حياتنا فلن يقف أمامنا العالم كله، بل ستتحول حياتنا إلى سعادة حقيقية من ذلك النوع الذى أعيا البشر البحث عنه. لقد وضع الله السعادة بين أيدينا بدافع د من حبه العني لنا.. ولكن على الإنسان أن يستخرج هذه السعادة بنفسه.. أى أن الآخـــرين أو الأشـــياء المحيطة بالإنسان لا تمنحه السعادة بقدر ما يستخرج هو منها السعادة، وذلك عـــن طريق الأسلوب الذى ينظر به إليها.

68وصيتى

من هنا يمكن لأى شىء ولكل شىء أن يمنح السعادة للإنسان مادام الأمـــر فـــى يديه.. أن حياتنا على هذه الأرض سعادة لا تنقضى. فهذه الأرض جزء مـــن كـــون رائع يسبح بحمد الله، إن فى نعمة "الصحة سعادة، وفى عاطفـــة الأبـــوة والبنـــوة سعادة، وفي حب الأهل والأصدقاء سعادة، وفى الحياة الزوجية سعادة، وفى العمـــل سعادة، وفى التأمل فى خلة السماوات والأرض سعادة، وفى الأمل الذى يقهر البأس سعادة، وفى جمال الزهرة وفى خضرة الشجر، فى انسياب الميـــاه ، وفـــى وقفـــة الجبل، فى طلوع الشمس وفى سحر القمر، فى صفاء الروح، وفى استقامة الخلق.. سنعرف الله.. فنسعد إلى الأبد.

ولعل أروع ما فى منطقتنا العربية أنها البقعة الوحيدة التى خصها الله عز وجل بحبه العظيم بأن جعل منها مهبط الرسالات السماوية كلها.. لذلك فأننى أفخر بأننى عربى . فمنذ فجر الحياة ووطننا يطفو بالنور ويستقبل من السماء كلام الله ورسالاته لكى يرسل بها إلى أطراف الأرض عدلا وطهرا ونقاء وسلاما.. من تراب وطنى انبثق نور قدسى هادئ سعى إليه موسى ليعود منه بشهاب قبص! علهما به يصطلون. وهناك " فى روعة هذا النور، كلم الله موسى تكليما.. ولما أن سأل موسى ربه طمعا فى أن يراه، أمره جل وعلا أن ينظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فانك يا موسى سوف ترى الله . وتجلى مالك الملك

للجبل فجعله دكا، وخر موسى صعقا.. ثم تاب.. هذه البقعة المباركة بكلام الله فى أرض وطنى، وهذا الجبل الذى تجلى له ذو الجلال والإكرام قطعة من تضاريس وطنى. ومن دون نساء الأرض اصطفى الله مريم وطهرها على نساء د!المن. بشرتها الملائكة بعيسى عليه السلام فحملته فانتبذت به مكانا قصيا، وهناك تنحت إلى جزع النخلة، نوديت إلا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وعادت بوليدها إلى قومها لتكلم فى المهد: انى عبد الله، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا.

إن مريم ابنة وطنى، والنخلة من زرع وطنى ورسالة عيسى بزغت أول ما بزغت فوق أرض وطنى.

ذلك النبى العربى خاتم الأنبياء، أكرم خلق الله على الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، شهدت أرض وطنى مولده الكريم، وأظلت سماء وطنى شبابه الأمين، وسعدت رمال وطنى بسعيه فوقها مهاجرا ومكافحا من أجل دين الله و.طقت لبشرية على يديه أكرم الرسالات وأكمل دعوة أنزلت للناس. فهل بعد كل هذا نبحث عن أدلة أخرى لكى نثبت محبة الله

لهذا العالم؟ إذن فحين يحب الإنسان الله أكثر من كل شىء آخر، بل أكثر من نفسه، فإنه إنما يأتى فعلا طبيعيا، مادام الله هو الخير المشترك للكون كله، ولسائر الأجزاء التى يتكون منها.. وإذا كان الإنسان جزءا من هذا الكون فإنه من البديهى أن الجزء

المتضمن فى أية وحدة كلية لا يمكن أن يحب ذاته حبا صحيحا.. إلا إذا أحب ذاته باعتباره جزءا من هذا الكل.. لا باعتباره فردا منفصلا قائما بذاته.. والإنسان

بوصفه جزءا من الحقيقة الكلية الشاملة، أو باعتباره مخلوقا يدين لله بكل ما يملك لابد أن يحب الله أكثر مما يحب ذاته، وهو لا يحب الله حبا صادقا إلا حين يشعر بأنه ينتمى إليه ويصدر عنه.. ومن طبيعة كل مخلوق أن يبحث عن خيره الاسمى، ولما كان الله هو خيرنا الأسمى.. فمن الطبيعى أن يتغلغل حب الله فى قلب الإنسان أكثر من أى حب آخر يرتبط بالرغبات البشرية المؤقتة.. وهذا يعنى أن حب الله هو الكمال الاسمى للإنسان ولذلك يحاول دائماً التشبه بخالقه ، لأنه يعلم بالحدس أو الشفافية أو الوجدان أن الله خلق الإنسان حبا فيه أى أن الحب كان السر الإلهى وراء إيجاد البشر.

www.anwarsadat.org

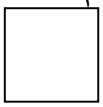

وأذا كان من طبيعة الحب الناضج الشامل أن يكون متبادلا من الطرفين ، فبالتالى يكون الحب هو الباعث الذى يحكم رغبة الإنسان فى الرجوع دائماً إلى الله .. وهذا يجعل الكون كله تجسيدا حيا لمفهوم الحب الإلهى المجرد. فالعلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة ضرورية لاستمرار المعنى من هذا الكون أصلا وهى صلة الكل بالجزء، أو صلة الكمال المطلق بالطبيعة الناقصة. فالإنسان لا تكتمل إنسانيته وكيانه إلا بإدراكه للحب الإلهى الذى يغمره ويغمر هذا الكون.

وكما أن هذا المفهوم يبدو واضحا عند المتصوفة المسيحيين وعلى رأسهم القديس توماس الأكوينى، فقد أضاف إليه المتصوفة المسلمون تنويعة جديدة تتمثل فى ضرورة استبقاء الطابع التلقائى الصافى النقى للحب الإلهى ، فوجهوا كل اهتمامهم إلى تجنب مفهوم المنفعة الشخصية أو السعادة أو الخير من تصورهم الشامل لهذا الحب . قيل مثلا عن رابعة العدوية أنها وضعت

72وصيتى

ذات يوم فى إحدى يديها نارا، وفى الأخرى ماء، وعندما سئلت. عن المعنى وراء هذا قالت:

''سألقى بالنار فى الجنة، وسأسكب الماء على النار، فلا تبقى هذه ولا تلك، وينجاب الحاجبان عن السالكين طريق الله ويتبين لهم المقصود، ويشاهدون الله لا يدفعهم رجاء ولا يفزعهم خوف، افئن لم يكن رجاء فى جنة ولا خوف من نار، لم يعبد الله أحد.''

أرادت رابعة العدوية بهذا القول أن تجعل الحب الإلهى منزهـــا عــن المنفعــة أو الغرض . وفى مناجاة لها تخاطب الله عز وجل بقولها: " الهى إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقنى بنار جهنم وإذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنى إياها ، أمــا إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى يا الهى من جمالك الأزلــى ". !! وذات مرة عبرت رابعة العدوية عن مفهومها للإيمان فقالت: ما عبدته خوفا من نــاره ولا حبا لجنته، فأكون كأجير السوء، بل عبدته حبا له وشوقا إليه."

هذا هو الحب الحقيقى كما يتمثل فى اسمى درجاته وأرقــي مســتوياته. وفــى اعتقادى أن كل الخير والحق والجمال فى هذه الدنيا ينبع من هذا الحب الذى لــولاه لما قامت لهذا الوجود قائمة.. والإنســان الحقيــقى لا يــمكن أن يــدرك المعنــى الحقيقى لوجــوده دون المــرور بهــذه التجــربة الروحيــة والوجدانية الرائعة التى

www.anwarsadat.org

لأبد أن تتحول إلى جزء من كيانه وفكره وسلوكه .. إن الإنسان الـذى يحـب الله دون طمع فى ثواب أو خوف من عقاب لابد أن يحب صنع يديه المتمثل فـى الـدنيا التى يعيش فيها، وفى البشر الذين يحيطون به، وبالتالى يمكن للعديد من السـلبيات والصراعات التى تهدد المجتمع والفرد أن تترك مكانها للبناء والتقدم والتطور.. فإذا كان من أهم شروط حب الله انتفاء عنصر الغرض أو الهوى أو المنفعة الشخصـية إلا أن من أهم نتائجه الخير الذى يعم الجميع ، وينشر معه الجمال ، ويعلـى معـه كلمة الحق .

74وصيتى

4

وإذا كافي الحب هو العلاقة بين الله والإنسان فلابد أن يكون كذلك بين الإنسـان وأخيه الإنسان. فهذه النفحة الإلهية السرمدية تسرى فى كل المخلوقات لكى تجنبها الصراع والفناء.. وعندما يدرك الإنسان أنه لن يستطيع أن يحقق وجوده أو خلاصه بمفرده، فإنه لن يتردد فى اعتبار نفسه مسئولا عن وجـود الآخـرين وخلاصـهم أيضا.. إذن فالحب الإنسانى هو التجربة البشرية التى لا يريد فيها الإنسان أن ينجو بمفرده.. ولعل هذا ما عناه هيجل عندما قال أن الحب هو عبـارة عـن الإحسـاس بالكل، وأن الأشخاص الذين يجمع بينهم الحب لابد أن يشعروا بأنهم يشكلون وجودا واحدا .

ويمضى هيجل فيقول أن المسيح عندما دعا الإنسان إلى أن يحب قريبه كنفسه، فأنه لم يقصد بهذا أن يمنح الإنسان أخاه. نفس القدر من الحب، أو أن يكون حبـه

لأخيه معادلا من حيث القوة لحبه لنفسه، وإنما كان يعنى أن ينسب الإنسان إلى أخيه قدرا مساويا من الإحساس بالحياة ، مادام الواحد منهما والآخر إنما يستمد الحياة من مصدر كلى واحد .

www.anwarsadat.org

هذا المفهوم الفلسفى للصداقة بتجسد ببساطة فى المثل الألمانى الذى يقــول: إن الصداقة هى أشهى ثمرة من ثمار الحياة.. ليس هذا على سبيل المبالغة الإنشائية بل حقيقة راسخة لو أدركنا أبعادها لاستطعنا أن نجعل من حياتنــا وجــودا أرقــى. أن مفهوم الصداقة مثل مفهوم الحب تماما، لابد أن يؤخذ بمعناه الشامل العميق خاصة أن معظم الصداقات فى أيامنا هذه أصبحت صداقات منفعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معافى الحقد الدفين والصراع الخفى، ونسى الجميع فى غمرة الصراع اليــومى من أجل لقمة العيش المعافى السامية التى تبثها الصداقة فى أفئــدتهم . فالصــديق يمكن أن يكون أفضل من الأخ، ذلك لأن الصداقة اختيار واختبار أما الأخــوة فــأمر واقع وتحصيل حاصل، وقد تصيب وقد تخيب.

ومن الناحية السيكولوجية تعد الصداقة ضرورة حيوية فى هذا العالم الذى يجبــر الإنسان دائماً على العزلة والانطواء واجترار آلامه بمفرده دون أن يشاركه. فيهــا أحد.. وما أروع أن يجد الإنسان صديقا وقت الحاجة أو الشدة.

إن مجرد أن ينفس الإنسان عن مكبوتاته عند صديقه، فإنه يأمن شــر الانفجــار الذى قد يورث العقد والهزات النفسية، أو يؤدى إلــى الانهيــار الكامــل أو ربمــا الانتحار. وعندما أتكلم عن الصداقة فليس هذا من وحى قراءاتــى فقــط بــل بــدافــع مــن خبــرتــى الشخصيــة أيــضا . فقــد افتقــدت الصداقــة كثيــرا فــى السجــن عندما

وجدت نفسى فى الزنزانة 54 بسجن مصر المركزى ولــيس لــى أصــدقاء ســوى الجدران الأربعة التى تطبق على أنفاسى من كل جهة.

إن محبة الصديق ليست مجرد صورة من صور حب الذات وإنما هى مظهر من مظاهر الخروج عن الذات من أجل الاعتراف بقيمة الآخرين.

وإذا كانت الكراهية لا ترى فى الناس إلا تكرارا مملا لبعض " العيوب النفسية والنقائص الأخلاقية، فإذ المحبة لا ترى سوى ص القيمة المطلقة لكل فرد من الأفراد، فتمي فيه وحده شخصية كلية لا يضارعها شىء آخر فى الوجود. تبدو الكراهية دائماً مندفعة ومتهورة بلا مبرر منطقى أو إنسانى، ذلك لأنها فى حقيقتها عبارة عن حكم متسرع أهوج ، أو نظرة سطحية عابرة . ترفض الاعتراف بما يمثله الآخر من قيم إنسانية وروحية ، أما المحبة فأنها على النقيض من ذلك تماما، إنها التجسيد العملى للتأنى والروية ، أو نوع من وضع الآخر فى الاعتبار على سبيل فهمه وإدراك ذاتيته . فالصداقة تقرأ الباطن وتركز على الجوهر بينما! تقتصر الكراهية على التأويل السطحى والتفسير الظاهرى لسلوك الآخرين.

www.anwarsadat.org

5

والإنسان الذى يفقد القدرة على حب الآخرين والاستمتاع بصداقاتهم، يجعل من قلبه مرتعا لمشاعر الكراهية والحقد والصراع وبالتالى تصبح ذاته صلبة قفرة تفتقر إلى الخيال الرحب والنظرة الموضوعية والبصيرة العميقة. هذا الإنسان بطبيعته عاجز عن تعمق ذاتية الآخر، أو التعرف فى شخص صديقه على معنى القيم الإنسانية والروحية التى يحملها، وبالتالى يظل دائماً غريبا منعزلا فى صحراء قفراء ليس فيها سوى الفراغ والخواء .. وهذا يذكرنى برواية الروائى الأمريكى المبدع لويد دوجلاس (السحر الأعظم) والتى قال فيها إن الإنسان عندما يعثر على صديق حقيقى فإنه يضيف جزءا حيا إلى كيانه وروحه، وعندما يفقد صديقا فانه يفقد جزءا عزيزا على نفسه يشعر به وهو يقتطع اقتطاعا من كيانه وروحه. وقد جربت هذا بصفة شخصية وبكل المرارة والألم لأننى عندما امنح صداقتى لأى إنسان أمنحها كاملة غير منقوصة بلا تحفظات.. لكننى كثيرا ما فوجئت بمن يخون عهد الصداقة اعتمادا على ثقتى الكاملة فيه.

78وصيتى

وبرغم الخيانة التى تجعلنى أرفض مثل هذه الصداقة رفضا نهائيا وباتا، إلا أننى كنت أشعر بالمرارة فى حلقى والألم فى نفسى لأننى فقدت إنسانا كان صديقى فى يوم من الأيام .

إن الصداقة هى مظهر من مظاهر الأيمان بقيمة الإنسان ، واعتراف ضمنى بالامتياز الخاص الذى تتمتع به كل ذات إنسانية على حدة ، أى أن هناك من القيم الإنسانية ما يساوى عدد ما هناك من أصدقاء .

وعلى حين أن الصداقة تريد دائماً أن تفهم نجد أن الكراهية لا تفهم أو تخشى الفهم أولا تريد أن تفهم، لأنها تدرك فى اللاشعور أنها لو فهمت، لما استطاعت أن تستمر فى تيار الحقد والصراع والانتقام، إن الفهم الموضوعى الشامل العميق يتنافى تماما مع وجود الكراهية ذات الأفق الضيق والنظرة أ السطحية.. فالكراهية تضخم من ذات الإنسان إلى الدرجة التى تعميه فيها عن رؤية ذوات الآخرين ..فهى قد تهتم بالتفاصيل والجزئيات، ولكنها تعمى عن رؤية الحقيقة الموضوعية فى شمولها .

لكن الصداقة ترى الكليات فى الجزئيات وبالتالى تحتفظ لنفسها بنظرة ثابتة تستمد ثباتها من موضوعيتها التى لا تميل مع الهوى .

ويتسع مفهوم الصداقة ليشمل الكون كله، فالصداقة م " الحقيقية صداقة الحياة .

www.anwarsadat.org

وإذا كانت الأديان السماوية تدعونا إلى المحبة والصداقة والإخاء.. فهى لا تقصد بهذا محبة الأخ أو الصديق أو المواطن فقط .. بل محبة الإنسان فى كل زمان ومكان . والصداقة الحقيقية بين الشعوب ليست سوى الثمرة العملية لهذا المفهوم الشامل للصداقة.. ولنا أن نتخيل عالما تحكمه مثل هذه الصداقة بين شعوبه. ولما كانت الصداقة م!هرا من مظاهر الخصوبة أو الامتلاء من الداخل.. فإن الإنسان لا يستطيعان يحب أو يصادق إلا إذا كان يملك أن يهب أو يمنح. بهذا المعنى يمكننا تعريف الصداقة بأنها صورة من صور الإنتاج أو الخلق أو الإبداع أو القوة الحقيقية.. وهذا يذكرنا بقول الفيلسوف الألمانى نيتشه فى كتاب إرادة القوة .

" إن الفرد القوى بكل معافى الكلمة إنما هو الذى يملك من الشفقة والنبل وعظمة النفس ما يجعله يمنح، دون أن يكون الأخذ فى اعتباره فلا تكون صداقته مجرد مظهر من مظاهر الرغبة فى التفوق أو الامتياز.. هنا يكون المنح هو النموذج الصحيح لمفهوم الصداقة عنده، وتكون شخصيته الزاخرة بالمثل والقيم السامية المنبع الذى يتدفق منه كل محبة صادقة وصداقة حقيقية."

هنا تتجلى الصداقة الحقيقية، فالصديق الحق لا يحب نظيره فقط ، بل يتجه بصداقته نحو سائر اخوته فى الإنسانية وفى مقدمتهم الضعيف .. والغريب .. والمسكين وهذه هى أخلاق

القرية المصرية التى تعتبر كل من على أرضها عضوا فى أسرتها . ولذلك رسخت قيمة الصداقة فى وجدانى منذ طفولتى المبكرة فى ميت أبو الكوم. وحين أقول الصداقة، فأننى أعنى تلك المعانى السامية التى تربط بين القلوب وينتفى فيها- أساسا- الغرض. لذلك كنت أغضب من كل نفسى حينما أستمع كما يستمع الناس إلى قصص هذه الحياة التى تحدثنا عن العبث بالصداقة أو الاستهانة بها بين صديقين، تماما أغضب حينما يعبث بهذه الصداقة فى المحيط الدولى بين دولتين .
ولقد سبق لى أن كتبت فى صحيفة " الجمهورية! فى 13 مارس 1954 حينما كنت رئيسا لتحريرها، قلت :

" تعودت دائماً أن أختزن الألم فى نفسى حين أعانيه. ولقد مرت لى صنوف كثيرة من هذا الألم. تألمت فى السجن لأن من حبسونى اتهمونى بأننى أتآمر على عميل من عملاء بريطانيا عدو بلادى اللدود فعانيت وتحملت ، واتهمتنى رئاسة الجيش ، أيام فاروق أننى خنت عهد ملك بريطانيا حليفة فاروق - وقتذاك- فطردت من الجيش واعتقلت ، ومرة أخرى عانيت واحتملت .

6

ولكن شيئاً واحدا عانيته ولم أستطع أن أتحمله. ولم أستطع أن اختزنه فى نفسى فقد كنت أشعر أنه إذا ما استقر فيها لابد أن يطمس جمالها، وأن يعكر صفوها وأن يزلزل فيها الهدوء واليقين. ذلك الشىء يا أخى هو خيانة الصديق أو الزميل. ولقد فتحت لى الآلام

التى اختزنتها من داخل نفسى بابا مشرقا رائعا هو التأمل .

تأملت فى هذا الخلق: يحبون ويكرهون، يفرحون ويألمون، يؤمنون وينكـــرون.. واليوم وأنا أتذكر كل هذا أحس فى نفسى نشوة رائعة حبيبة.. نشوة أجمل من الحب لأنها لا تعرف الكراهية، ولا تأبه للألم.. ولعلها بدء المعرفة. والصداقة- كضـــرورة أخلاقية- لا تعنى فقدان المعايير الموضوعية والحكم على كل ما يفعله الصديق بأنه صواب.. بل أن الصداقة الحقة تحتم الصدق الموضوعى مع الصديق قبل أى اعتبار آخـــر، ولـــو أثارت هـذه الموضوعيـــة غضـب الصـديق لمـا استحـــق هـــذه الصداقـــة أيضا. فالصداقة لا تعنى الزيف والبهتان

82وصيتى

والخداع والتضليل والتحايل، بل تعنى مواجهة الحقائق مهما " كانـت مـرة.. ثـم إصلاحها فى صدق وإخلاص. فمثلا عندما قمت بإنشاء دار جريدة " الجمهورية " فى أواخر عام 1953، دخلت فى دوامة رهيبة بسبب صراع مـع القـيم الباليـة التـى رسخت منذ صحافة العهود السابقة التى كانت تؤجر للحزب الـذى يـدفع أكثـر. وكانت العلاقات زاخرة بالصداقات الظاهرية التى يتلوها فورا الطعنات من الخلف .

عندما جاءت عملية ترشيح المحررين أدركت مدى الحضيض الذى بلغته صـحافتنا. فكلما رشح لى البعض أسماء معينة أبدأ فى السؤال عن أصـحابها، فاسـمع بعـد

السؤال طعنا شديدا فى أصحاب هذه الأسماء .. كان يرشح مثلا خمسة. فاسمع طعنا فى أربعة وفى اليوم التالى أسمع طعنا فى ثلاثة ثم فى اثنين .

وعرفت حقيقة مخزية، عرفت أن كل إنسان منهم يكره الآخر، وإن لم يكــن يعرفــه المسألة كانت محنة أخلاقية تمر بها صاحبة الجلالة ولم أكن أفى رى فى تلك الأيام! هل المسألة هى أننا نكره الخير لبعضنا أم المسألة أعمق من هذا؟ على أية حــال ا لقد استمعت إلى أراء كثيرة فى أناس كثيرين ولم تكن كلها صحيحة أو لوجه الله !

www.anwarsadat.org

وكانت أسرة التحرير فى أثناء هذه العمليات المتشابكة المعقدة العديدة تكبر ويزداد عدد أفرادها وعندما بدأنا نعد التجارب أى "البروفات " اكتشفت مسألة خطيرة تتصل بعلاقات الزملاء بعضهم ببعض. فهذا لا يحب ذاك. والثانى لا يستلطف دم الثالث. وجعلت من مسألة تسوية الحلافات بين أفراد أسرة التحرير جزءا من عملية أعداد الجهاز الكبير- لكن تبين لى أن بعض المحررين- وكانوا من أصدقائى- قد فهموا أن أنور السادات- صديقهم- يجب أن يضعهم فوق رأس الجميع وكانوا مخطئين ولكى لا تحدث مأساة تؤثر فى سير العمل اضطررت إلى الضرب بشدة، وبقسوة لكى أثبت للزملاء جميعا أن الصداقة شىء والعمل شىء آخر. فأنت صديقى وهذا شىء لا خلاف عليه ولا أنكره.. أما أنك تملك كفاءات لا وجود لها عند الآخرين، فذلك يحتاج منك إلى دليل. والصداقة ليست دليلا على الكفاءة .

84وصيتى

7

هكذا كان موقفى مع أصدقائى، كان حتما على أن أعطيهم درسا ما كان أغناهم عنه، لو كانوا قد آمنوا بالعمل ، لا بالعواطف، فالتوازن بين العقل والعاطفة ضرورة يحتمها النضج الفكرى للإنسان. فالصداقة وإن كانت فى أساسها عاطفة من أحمى العواطف الإنسانية إلا أنها فى حاجة إلى سياج عقلى يحميها من شطحات العاطفة. ولعل المقاييس الموضوعية خير حماية " للصداقة الحقة القادرة على اجتياز اختبار الزمن.

وفى نفس الوقت فإن الصداقة تستطيع أن تمنح هذه المقاييس الموضوعية الكثير من العلاقات الإنسانية واللمحات الخصبة التى تحيل جفاف العمل وصرامته إلى متعة يشارك فيها كل الأصدقاء والزملاء، وبذلك يزداد الإنتاج بازدياد روابط الصداقة ومتانتها .

وفى اعتقادى أن الصداقة كانت السياج المتين الذى احتفظ بتماسك الضباط الأحرار وصلابتهم إلى أن قامت الثورة فى 23 يوليو سنة 1952. فقد أضطلع بقيادة هذه الثورة لفيف من

www.anwarsadat.org

شباب مصر، عاشوا سنوات عديدة قبل الثورة مجتمعين تحت راية المبادئ الستة التى أعلنوا عنها عند قيام الثورة. وقد تبينت قيمة الصداقة التى جمعت لن هؤلاء الثوار حينما دقت الساعة وحانت اللحظة الحاسمة التى تعرضوا فيها للمحنة الفاصلة بين النجاح والفشل أو بعبارة أخرى بين انتصار المبادئ وأعواد المشانق ، فكانت وقفتهم صفا واحدا ، وكتلة متراصة هى حجر الزاوية فى نجاح الثورة.

لقد اجتمعوا قبل الثورة على مبادئ لا علاقة لها بالأشخاص وكانت صداقتهم بهدف حبهم لمصر أولا وأخ!!، ولا صلة لها بالرابطة التى كانت تجمع الأحزاب المنحلة، رابطة المبادئ المجردة من المطامع والأسباب. لا يسهل فكها ولا يمكن أن تنفصم مهما يحدث من خلاف أو تعارض بين وجهات النظر، ذلك لأن جوهر الحلاف لا يتعلق بنزاع على مغنم أو تهافت على منصب. قد يحدث، بل لابد أن يحدث بين أفراد أية جماعة من م الأصدقاء، تباين فى زوايا النظر إلى مسألة معينة أو أكثر، ولكن هذا التباين بين أصدقاء حقيقين لا يمكن أن يفض ما بينهم من رباط مقدس، فهذا الرباط هو الجوهر النقى الطاهر الذى لا تنفصم عروته، وأما الخلاف وتباين وجهات النظر فهو عرض لا يمكن أن ينال من روعة الجوهر .

وإذا كانت المبادئ الموضوعة تعتمد أساسا على العقل ، فإن الصداقة الأصيلة تنهض على العاطفة والعقل فى آن واحد. من هنا كانت الصداقة هى الضمان الرئيسى للحفاظ على أواصر العلاقة بين الزملاء إذا حدث اختلاف فى الرأى حول المبادئ . فقد يجتمع الناس حول مبادئ ، حول نظريات يقرءونها ويعتنقونها أو أفكار يبشر بها دعاتها. وقد يبلغ بهم الاقتناع بهذه المبادئ والنظريات والأفكار

غايته، ويبلغ بهم التعصب لها ذروته وما بعد الذروة أن صح هذا القول، ولكن هذه المبادئ والنظريات قد تتعرض للجدل فتتعرض الجماعة للانقسام وقد يتفاقم الجدل فينحرف عن الآراء إلى أصحابها وتبرز الأشخاص وتختفى الآراء، وتتلاعب أهواء النفوس، ثم تنهار الجماعة وما اجتمعت عليه. هنا يبرز رباط القلوب وقيمته فى الحفاظ على رباط العقول من أن ينفصم. لأن الصداقة تمنح بعدا آخر للتفاهم وتعمقه. فالأصدقاء خير من يفهم بعضهم البعض بحكم التوافق فى المشاعر والأهداف والحرص على أواصر هذه الصداقة من أن تنفصم لأن من السهل على الإنسان أن يتخلص من الرابطة العقلية ولكنه من الصعب عليه أن يتخلص من العلاقة العاطفية المترسبة فى الوجدان والشعور.

www.anwarsadat.org

لست أكتب هذا غضاً من قيمة المبادئ والنظريات .
فما استحق الحياة من لا مبدأ له، يعيش من أجله. ولكننـــى فقــط أرى أن المبــادئ وحدها لا تكفى لأن الرباط الذى يربط العقول لا يستطيع دائماً أن يربط القلوب، وأن يذيب الهوى ويقتل الأطماع. ولذلك تعد الصداقة – فى تقديرى– ضــرورة أخلاقيــة بجب التأكيد عليها دائماً ليس فقط بين الأصدقاء ولكن على جميع المســتويات فــى المجتمع فإن وجودها سيشغل فراغا من المحتمل أن يزخر بالسلبيات والمــؤامرات والدسائس فى حالة غيابها. فإن كانت علاقة العقول ترتبط بالمصلحة وما ينتج عنها من ذاتية قد تبلغ حد الأنانية. فإن صداقة القلوب يمكن أن تحد من أثره الأنا وأنانية الذات بحيث يستطيع الإنسان أن يخرج من ذاته ويرى الأشياء بموضــوعيه أكثــر وأعمق. هذه الموضوعية هى الشرط الأول والرئيسى لتقدم الأمــة بصــفة عامــة. واليوم الذى ينظر فيه كل مواطن إلى زميله فى نفس الوطن على أنه صــديق وأخ حتى بدون أن يعرفه شخصيا، هذا اليوم سيكون بمثابــة فجــر التقــدم الحضــارى الحقيقى.

www.anwarsadat.org